منهج الناقد اللغوي للأدب

– ابن جني نموذجا –

الدكتور عبد العزيز آيت الشاري
باحث في اللغة العربية وآدابها
المغرب

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى محاولة الإحاطة بمنهج الناقد اللغوي للأدب ابن جني نموذجا، محاولين البحث والتنقيب عن الآليات التي اعتمدها عثمان بن جني وهو يشرح شعر رفيقه المتنبي، من هنا يمكن صياغة إشكالية هذه الورقة على النحو التالي: كيف يقارب اللغوي الأدب؟ ما غاياته وأهدافه؟ وهل نظرة اللغوي للشعر هي نظرة البلاغي والناقد الفني له؟ وستحاول هذه الورقة تبني المنهج الوصفي مع توظيف آليات مناهج متقاطعة في سياقها. وذلك من خلال المحاور التالية:

- منهج أبي الفتح في تحليل الخطاب الشعري
-نموذج من نقده للشعر

الكلمات المفتاحية: الخطاب الشعري– اللغة – المعنى– المنهج.

تقديم:

إن الغاية الأسمى للأدب تتجلي في إبلاغ ما يفكر فيه الأديب أو الشاعر إلى المتلقي منذ أن اتخذ الإنسان الكلمة وسيلة للتعبير عن أغراضه، وبالتالي فإن من واجب هذا الأديب أو ذاك أن يكون عارفا بأسرار هذه اللغة التي يخاطب بها المتلقي الذي يشاركه ثقافته وهويته أو غيره من المتلقين الذين تترجم لهم أعماله، ليشكل منها صورا تخييلية ومعاني جليلة، الناقد الحاذق هو الذي يستطيع أن يؤول تعابير الأديب وهو تأويل يفتح الشهية لناقد آخر وهكذا دواليك، لما كان الأدب غير معترف بحدود زمانية أو مكانية.

وعلى هذا الأساس فقد تعددت الاتجاهات التي تولي النص الأدبي عناية فائقة منذ الجاهلية إلى الآن ما بين ناقد فني وبلاغي، أو ناقد لغوي ولساني صرف، وكلاهما ينظران في هذه اللغة التي وظفها الشاعر أو الأديب في عمله لأنها هي الوسيلة التي يشكل بها مادته الأدبية، كما أن الفنان التشكيلي يتخذ من المواد والخامات وسائل لعمله الفني.

من هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتناقش تعامل الناقد اللغوي للأدب لإبراز الآليات التي يعتمد عليها للحكم على النص الأدبي وبيان تماسكه وبنيته ومعانيه الضمنية والصريحة، ثم بيان الغاية التي يريد أن يصل إليها هذا الناقد من خلال توظيف آلياته اللغوية، ولا أحد ينكر أن الناقد أو القارئ بصفة خاصة سواء كان لغويا أو بلاغيا أو غير ذلك فهو مبدع ثان للنص الأدبي، كما أنه عدو الأديب بالدرجة الأولى كما يقول الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو، لأن الناقد محمل بخلفيات إيديولوجية ومعرفية ستظهر وهو يحلل الشعر أو الأدب بصفة عامة. وعليه يمكننا أن نتساءل بخصوص بحثنا هذا الذي يروم رصد الناقد اللغوي الكبير ابن جني للخطاب الشعري المتنبئي بشكل خاص مفاده: هل كان أبو الفتح ناقدا موضوعيا لشعر رفيقه؟ هذا الأخير – أي المتنبي – نجده قد صرح في غير موضع قائلا: "ابن جني أعرف بشعري مني"1، وقد جرى بينه وبين الشاعر حوار فقال أبو الفتح: " وقال لي المتنبي يوما: أتظنُّ أن هذا الشِّعر لهؤلاء الممدوحين، هؤلاء يكفيهم منه اليسير، وإنما أُعمله لك لتستحسنه، أي لك، ولأمثالك."2، وهو قول صادر عن شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس بشعره وهو القائل:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وعليه فإن هذا التصريح يشي بأن أبا الطيب يعلق وسام النقد لأبي الفتح وإجازته له لتناول الخطاب الشعري، لأن المتنبي يعي أهمية علوم اللغة في فك مغاليق القصيدة التي تعتبر بنية لغوية منسجمة، والشاعر نفسه معني بهضم هذه العلوم ليكون شعره قويا، وهذا باد في شعر أبي الطيب كما سنبينه. من خلال المحاور التالية:

سيتناول المحور الأول منهج أبي الفتح في تلقي الخطاب الشعري عند المتنبي باعتباره لغويا (لسانيا) وذلك من خلال مقدمة كتابه الموسوم بالفسر وهو شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، وسيتناول المحور الثاني نماذج من تعليقه على شعر رفيقه وعقد مقارنة بينه وبين تعليقات الشاعر الكبير أبي العلاء المعري في معجز أحمد واللامع العزيزي.

I منهج أبي الفتح في تلقي الخطاب الشعري المتنبئي:

لم يتردد ابن جني حينما دعاه مخدومه السلطان بهاء الدولة البويهي أن يصنع له شرحا لديوان المتنبي، وأن يقوم " بفسر معانيه وإيراد الأشباه فيه وإيضاح عويص إعرابه وإقامة الشواهد على غريبه "3، وذلك لأمرين اثنين: أولهما: أن صحبته الطويلة لشيخه المتنبي وقربه من مجالسه ومجالس أمرائهما معا تعد بالنسبة إليه فرصة لتوطيد العلاقة ورد الجميل لصاحبه الذي ذاع صيته في الآفاق بحيث جرَّ عليه خصوما كُثر أرادوا نيل الشهرة في ميدان اللغة والنقد والشعر، " ومن الذي يسلم من قالة الناس وحسدهم، وهل

خلا الصدر الأعظم والجمهور الأفخم من أهل العلم وذوي الألباب والفهم، من هذه المنافقة والمناقضة والتعصب والتحزب على قديم الوقت وإلى زماننا هذا " 4 ، ولذلك رام إنصافه والتدليل على صحة لغته.

أما السبب الثاني الذي دعا أبا الفتح الإقدامَ على شرح الديوان هو حبه لفك ألغاز اللغة من كل جوانبها، وحبه للتأليف في العربية وعلومها، وقد رأى في الديوان مناسبة كبرى للتعامل مع لغة الشعر"5، التي نتجت عن ذات عبقرية متشبعة بالحكمة والثقافة والتجربة الغنية، قال ابن جني في حق أبي الطيب: " إنني لم أر شاعرا كان في معناه ولا مجريا إلى مداه " 6، ويضيف قائلا: " ولقد كان من الجِدِّ فيما يعانيه ولزوم طريق أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أسدِّ وتيرةٍ وأحسن سيرةٍ." 7.

وطَبَعِيٌّ أن يكون شعر الرجل بتلك القوة والجمالية والأدبية لما كان ملازما للعلم والعلماء، بالإضافة إلى الفطرة والملكة الشعرية التي وُهبها لكونه قال الشعر مبكرا، وشرح ابن جني المسمى بالفسر، فقد ذكره صاحبه في إجازة له نقلها ياقوت الحموي في معجم الأدباء حيث قال ابن جني: " وكتابي في تفسير ديوان المتنبي الكبير وهو ألف ورقة ونيف" 8 .

ولم يكتف أبو الفتح بالإعجاب بشعر صاحبه فحسب بل عرضه على شيخه وأستاذه أبي علي الفارسي في خلوة بينهما وأشاد به الشيخ كثيرا لتكون تلك الإشادة دافعا آخر زكى عزمه على الشرح. قال ابن جني: "ولقد ذاكرت به شيخنا أبا علي الحسنَ بنَ أحمدَ الفارسي بمدينة السلام ليلا، وقد أخلينا، [فأخذ يقرِّظه ويفضِّله]، وأنشدته من حفظي ميميَّته:

واحَرَّ قَلبَاهُ مِمَّنْ قَلبهُ شَبِمُ

فجعل يستحسنها، [فلما وصلت] إلى قوله:

وشرُّ ما قنصتهُ راحتي قنصٌ ** شُهُبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

فلم يزل يستعيده مني حتى حفظه، وقال: ما رأيت رجلا قال في معناه مثلَه، فلو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي عليٍّ هذا فيه لكفاه، لأن أبا علي مع جلالة قدره في العلم، ونباهة محله واقتدائه بسنة أهل الفضل من قبله لم يكن ليطلق هذا القول عليه إلا وهو مستحقٌّ له عنده..." 9 .

ويذهب القاضي الجرجاني في الوساطة إلى أن النقاد الذين تلقوا شعر أبي الطيب قد انقسموا إلى فئتين يقول في هذا السياق: " (...) فإن المعترضين عليه أحد رجلين: إما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر وهو يتعرض على انتقاد المعاني لما يدل على نقصه ويكشف عن استحكام جهله، أو معنوي مُدقق لا علم له بالإعراب ولا اتساع له في اللغة فهو ينكر الشيء الظاهر وينقم الأمر البين "10.

بناء على قول القاضي الجرجاني يمكن تصنيف أبي الفتح ضمن الفئة الأولى وهي فئة اللغويين النحويين الذين يجهلون صناعة الشعر ومعانيه في نظر صاحب الوساطة، وهذه الخلاصة التي دونها القاضي تطرح تساؤلا مفاده: هل كان عادلا حينما وصف الفئتين معا بالنقص والعي في فهم الشعر؟ إذ ضرب دُرْبة فئة اللغويين والنحويين، ودُربة أصحاب المعاني عرض الحائط، أليس الشعر لغة؟ ومعرفة أسرار هذه اللغة وخباياها هو ضمنيا معرفة بالشعر ومعانيه؟

ثم إن أبا الفتح في تلقيه لديوان المتنبي انفتح على التراث الثقافي العربي من قرآن وتفسير وقراءات ووجوهها، وحديث وروايته، ونظم على تعدده، ومنثور على قوة خَطابته وحِجاجيته، وحكايات مأثورات.. وغيرها من النصوص التي جعل منها مقاربات

لفهم مدلولات فن القول ومعانيه ليدلل بها بالنظر إلى شعر صاحبه، فضلا عن ملازمته لأهل اللغة وعلومها وبخاصة ملازمته لأبي علي الفارسي وغيره، وكل هذه الالتفاتات لا يمكن أن تمنعه من الوصول إلى فسر الشعر الذي نتج عن شاعر لازمه وقرأ عليه ديوانه، " وكل ذلك أغنى هذا الشرح، وجعل منه بحرا متلاطم الأمواج ممتلئا بالدرر التي تمتد إليها الأيدي لتلتقط كل نادر ونفيس "11، وإليه يعود الفضل " الأمثل في كونه أساسا للدراسات المتنبئية في الشرق " 12 .

وعلى الرغم من كل هذا فأبو الفتح وإن اعترف في شرحه بأنه سينظر فيه نظرة شمولية تفسيرا وتعليلا وتوضيحا، فإنه وضع نصب عينه عدم الإطالة، وإن حصلت فإنما عن سابق عمد من الشارح لفائدة مهمة.

وبالرجوع إلى تسمية ابن جني لشرحه " بالفسر " فقد جرت العادة عند معظم الباحثين التنقيب عن الدلالات التي تحملها العناوين في ذاتها ولذاتها، ومن هنا نورد لمحة عنه في المعجم لغرض عقد المقارنة بين الاختيار والمراد. قال ابن منظور في لسان العرب: " الفَسْرُ: البيان..؛ الفَسْرُ: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشْكل" 13 .

وقال ابن فارس: "الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيءٍ وإيضاحه. من ذلك الفَسْرُ، يقال: فسَرتُ الشيء وفسَّرته." 14 .

يتبين من خلال هذه التوضيحات الواردة في هذين المعجمين وغيرهما، أن كلمة الفسر: تنتج عنها دلالات التوضيح والبيان وكشف المغطى، وكلها تترادف وتتقاطع في السعي إلى استجلاء المعنى ولفظه؛ ظاهره وغريبه، قريبه وبعيده. وإذا ما قُلبت كلمة الفسر مادامت من أصل واحد مثلا إلى: السَّفَرْ: نكتشف المعنى المشترك بين اللفظتين وهو: الإبحار وحزم المتعة للرحيل عبر اللغة والشعر لاكتشاف: (الأماكن، والألفاظ ومعانيها، والشخصيات ومكانتها، والثقافات وتنوعها، وخصب الخيال وصوره، وبلاغة القول وجماليته...إلخ.

ويذهب الباحث فيصل أبو الطفيل"15 في تحليله لمنهج ابن جني في فسر ديوان المتنبي، بحيث نقب عن " الفسر" أيضا في المعاجم ثم اجتهد في تأويل منهجه، وقَلَبَ الكلمة إلى " السفير " وعَدَّ ابن جني سفيرا بين المتنبي وقراءه. ويمكن أن نذهب ناحية أخرى مادام باب التأويل مفتوح على مصراعيه، ونقول إن أبا الفتح هو الحَكَمُ في قضية تلقي الشعر، فالمتنبي والقراء معا يلجؤون إليه بغية بيان وإظهار مكنونات اللغة في الأدب ومعانيها. والذي يؤكد هذا الطرح ما قاله أبو الطيب نفسه حينما قال: " ابن جني أعرف بشعري مني " وقد جرى بينه وبين الشاعر حوار فقال أبو الفتح: " وقال لي المتنبي يوما: أتظنُّ أن هذا الشِّعر لهؤلاء الممدوحين، هؤلاء يكفيهم منه اليسير، وإنما أُعمله لك لتستحسنه، أي لك، ولأمثالك."16.

وعليه فقول الشاعر لأبي الفتح: " لتستحسنه" له دلالة على حصافة الناقد الحَكَمِ الذي يُحتكم إليه لبيان المراد من الكلام، وبخاصة فن الشعر، وقوله: " لك ولأمثالك " دلالة على أن الشاعر يوجه الخطاب للنقاد جميعا عبر العصور لتذوق الشعر وفك مغاليقه كل من زاويته الخاصة لما كان باب الشعر مفتوحا في وجه القراء المتعددين المتمكنين من ناصية اللغة وعلومها، ولا يجب لأحد أن يدعي الكمال في الفسر والشرح والتأويل لما كان بنو البشر كلهم معرضين للزلل والخطأ وابن جني واحد منهم.

بناء على ذلك، فقد كان أبو الفتح واضحا في بيان منهجه في تأليف شرحه الكبير المسمى بالفسر، بحيث قرأ الديوان على صاحبه، ولازمه مدة، وبالتالي سَهُلَ عليه تلقيه لكونه يحمل خلفيات وتصورات ومعلومات كثيرة عن هذا الشعر الذي قيل في مناسبات عدة بعضها حضرها الناقد، وبعضها مذاكرة ومحاورات بينهما. قال ابن جني : " وأذكر ما كان شجر بيني وبينه وقت قراءتي ديوانه عليه إلى سوى ذلك مما أُحْضِرُهُ، من تلخيص، وإيضاح وشاهد ونظير، يكونان سببا للإفصاح ، وأزُمُّ شارد لفظه، وأميز

ما تداخل لقوة الصنعة من بعضه في بعضه، وأشرح جميع ما يلتبس من شعره، وأقر كلاً بإذن الله في مقره، ولا أدع مشكلا، من إعرابه إلا فسرته، ولا معدنا من دقيق معانيه إلا أثرته، ليكون هذا الكتاب قائما بنفسه ومتقدما في جنسه...."17 .

يستفاد من هذا النص – وغيره من النصوص التي تحفل بها مقدمته لكتاب الفسر– جملة من المعايير التي بنى عليها الشارح كتابه وهي:

- استحضار النقاشات الدائرة وقت القراءة وهو يشرع في الفسر.
- الشرح: ويراد به اللمحة الدالة عن المعنى، أي: التركيز عما هو أهم في قضية أثارت النقاش، وإن كان في بعض الأحيان يطيل الوقوف عند البيت الواحد.
- الإيضاح والشاهد والنظير: كل هذه الألفاظ تعد معيارا أساسيا لإقامة الدليل والبرهان، وقد عدَّدَها كثيرا في الكتاب: {الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة والأمثلة والشواهد الشعرية: قديمها وحديثها، والحكايات والروايات على اختلافها..}. وهو بهذه النظائر والشواهد يبتغي من ورائها تبيان فصاحة الألفاظ الموظفة من قبل الشاعر الذي يلجأ إليها عن علم ودراية بها، ويدعو منتقديه إلى إعمال النظر فيها، ذلك أنهم " قوم لا دُرْبَةَ لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه إذ لم تكن لهم خبرةٌ بدُخْلَةِ أَمرِه"18 على الرغم من أنه لا ينفي أن " الشاذ لا ينبغي أن يقاس عليه"19 .
- وقوله: " وأَزُمُّ شاردَ لفظه...وأشرح ما يلتبس من شعره "20 : دليل على نهجه معيار الدقة والموضوعية في تفسير الشعر، والمقصود من ذلك إرجاع غريب الألفاظ، والانزياحات ومعانيها إلى أصلها، لضبط العلاقة بين الشاعر والمتلقي الذي سيكشف عن هذا الشرود وهذا الخروج عن المألوف، وأبو الفتح يعزوه إلى الضرورات الشعرية التي تمنح للشاعر التصرف في اللغة لإبداع الصور الممتعة، والأساليب الفذة لما كانت العربية تمتاز بالحكمة والشجاعة، وقد خص بابا في الخصائص باسم " باب في شجاعة العربية " .
- تناول موضوعات مختلفة: يؤكده قوله: " وأقر كلاً بإذن الله في مقره"21، ومعنى هذا أن أبا الفتح لم يبوب القضايا التي تطرق إليها في علاقتها بعلوم العربية، بحيث كانت متأصلة في قرارته ولم يعمد إلى تسمية المصطلحات العلمية وترتيبها، بل يعمد إلى تبرير القواعد اللغوية في سياق البيت، أو الذي قبله، أو في سياق الغرض العام الذي قيلت فيه القصيدة.
- فسر مشكل الإعراب وعويصه : أي الفصل في الظواهر النحوية التي تخلق مشكلا إما : في البناء والاعراب، أو في الحركات الاعرابية، أو في الصيغ والتراكيب، وقد كثر النقاش بين الشراح في مسائل النحو كل يحوِّره ويسوغ له حكمه والشاهد في تلك الخرجات والاستعمالات الاعرابية.
- وبدهي أن الاختلاف في الاعراب والمبنى يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في الغرض والمعنى، ولذلك قال: " ولا معدنا من دقيق معانيه إلا أثرته "22 أي ذللته ودللت عليه، " ليكون هذا الكتاب قائما بنفسه ومتقدما في جنسه...."23.

نلحظ إذن أن الشارح لم يخرج عن الأعراف التي كانت سائدة حينها عندما يكون المؤلف على أُهْبَةِ الاستعداد لوضع كتاب معين، وذلك باتباعه معايير تكون له خلفية يستضيء بها لتنظيم متنه، ولاسيما حينما يكون الموضوع الذي يتناوله له من الجدة ما له، وبخاصة الحكم على الشعر ودروبه الملتوية قال تعالى في حق الشعراء :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾24 ، أي يبحرون في استخدام خيالهم وثقافتهم ولغتهم الحمالة لتأويلات عدة، والمتنبي هائم فيها، لكن ابن جني هام معه وتجرأ في فسر ديوانه انطلاقا من دربته في لَيِّ عنق اللغة وصرفها على وجوه كثيرة ليكون فسره بذلك ديوانا لغويا وأسلوبيا رصينا ممتعا ومقنعا .

وإذ يضع أبو الفتح هذا الشرح الكبير وغيره من شروحاته وكتبه النحوية والصرفية وغيرها فإنه يضع نصب عينه شروطا للنقاد والقراء عبر التاريخ ليهتدوا إلى فهمه وفهم شعر صاحبه لتحقيق المتعة الأدبية والمتعة النقدية والتي لن تتأتى إلا لمن أعمل فيه " مطايا الفكر، وانتهجتْ له طرائق النظر، وطال البحث عنه، وتكرر التأمل له "25 .

نخلص مما سبق إلى أن الفسر هو في الحقيقة غموض لذوي العَجَلةِ في الحكم على فكرة أو معنى ما، على أن قارئه يجب عليه أن يكون ذا نظر ثاقب، وذا ثقافة شمولية، وذا تأنٍّ في قلب الشعر و تعليق شارحه مرات عدة لفهم مخبوئه ودرره، إلا أنه لم يغفل المبتدئين والمتوسطين في أن يكونوا قراء له يغنمون بالمتعة الفكرية والشعرية بحفظ الآراء والمعاني، قال: " وليكون هذا الشرح ممتعا لكل من قرأه من مبتدئ أو متوسط أو مُنْتَهٍ، والله المعين وبه الثقة "26، وقد قيل قديما : " يكفيك من العلم المثال والشاهد".

وبالعودة إلى ترتيب الحروف الذي ارتضاه الشارح لكتابه نجده يرتبه حسب حروف المعجم، وقد ارتأى تقديم الألف التي هي همزة على الألف التي هي مَدَّةٌ لأن « الألف على ضربين : أحدهما همزة، يمكن تحريكها، { وتسكينها نحو ألف أحمدَ، وأخذَ، وسأل، وقرأ و الآخر مدَّةٌ ساكنة لا يكون قبلها إلا فتحةً } نحو ألف باب ودار وغزا ودعا، ويدل على أن صورة الهمزة في الحقيقة ألف أنك إذا قلت : ألف، فأول الحرف همزة، كما أنك إذا قلت : جيم، فأول الحرف جيم، وإذا قلت طاء، فأول الحرف طاء، وهو الحرف الأول الذي ينطق به(..) وإنما بدأت من ضربي الألف بالهمزة قبل المدَّةِ لأنها أقوى وأشد تصرفا (...)، وأخرت الأضعف لذلك"27.

ثم يبدأ بالحروف التي تشكل الروي في القصائد التي مدح بها سيف الدولة، ويذكر المناسبة التي قيلت فيها ومناسبات القصائد كلها، يقول في هذا الصدد : " وأقدم من ذلك ما قاله في الأمير سيف الدولة، رحمه الله، إذْ كان شاعرَه غير مدافع، وبه عُرفَ، وهو الذي أشاد بذكره، ورفع من قدره، ونشر ما كان مطويا من أمره، وفيه جمهور شعره "28، ثم ينتقل إلى القصائد الأخرى التي رويها على الحرف ذاته، فيخضعها للترتيب التاريخي ذاته ابتداء من أول ما نظم على ذلك الحرف إلى آخر ما نظم، ويستفاد من هذا أن أبا الفتح أولى اهتماما كبيرا للمنهج التاريخي، إلا أنه حبذ الترتيب الألفبائي ليسير الديوان على القارئ والمطلع، وليس الفسر وحده الذي رتب فيه حروف المعجم، بل الناظر في كتاب سر صناعة الإعراب يلقاه على نفس المنوال على الرغم من أن سر الصناعة كتاب في الصوتيات ينبني على فهم مخارج الحروف، ليكون بذلك أبو الفتح أحد أهم وأقدم من رتبوا الحروف على المخارج الصوتية بدقة متناهية كما قال الشيخ الدكتور رضا رجب" 29 .

II نموذج من تعليقه على الشعر:

تلقى أبو الفتح ديوان المتنبي في كتابه الفسر من منظور لغوي صرف دونما إغفال لجانب المعنى كما سنبينه، ولم يلتزم بتبويب الكتاب وفق الآليات التي اعتمد عليها، تجده يفسر البيت من الناحية الإعرابية وداخل النص نفسه يأتي بقضية عروضية أو صرفية أو بلاغية، إذ يسعى للوصول في نهاية الأمر إلى المعنى الذي يرومه أبو الطيب المتنبي، وهو في معرض تفكيكه لأجزاء البيت مثلا تجده يبدأ أولا بالدلالة المعجمية للفظ وما تعنيه عند العرب، وليس معنى ذلك أنه يعتمد على منهل للشرح اللغوي؛ بل معرفته اللغوية الوظيفية المتسعة هي التي فرضت تفصيلا في حيثيات الكلمة من كل جوانبها، سائقا لها شواهد من القرآن الكريم، أو من الحديث النبوي الشريف، ثم من الشعر العربي بمختلف مراحله حتى عصره، وأحيانا يطيل الوقوف عند لفظة لغوية، أو قضية متشابكة ويدعمها بروايات عدة رُويت عن أصحابه أو عن علماء اللغة وغيرهم، ثم ينتقل إلى أجزَأةِ نقده على البيت الواحد، أو الذي قبله، أو أبيات القصيدة برمتها من خلال بيت عميق أو مقاطع دالة، وذلك من خلال الكلمات التي تحمل حروفها أو حركاتها تآلفا (تشاكلا) صوتيا متماسكا وهو في هذا النقد يولي السياق أهمية قصوى للوصول إلى مراد الشاعر، وقد صرح عن هذا الطرح في غير ما مرة

لينفي انعزال الكلمة عن سياقها، إذ بانتظامها في الجملة والنص ينكشف الغرض والمعنى، وهذا ما نصه : " الكلمة الواحدة لا تشجو ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع ، إنما ذلك فيما طال من الكلام ، وأمتع سامعيه ، بعذوبة مستمعه ورقة حواشيه.."30، ويضيف قائلا :" ذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة ، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول 31."

ومن ثم يحكم على الغرض الشعري الذي تناوله المتنبي من خلال ثقافته ونظرياته اللغوية، أو من خلال حوار بينه وبين الشاعر وقت القراءة عليه لمعرفة دوافع الاختيار عند الشاعر.

قال المتنبي في قصيدة تتكون من (42) بيتا يمدح فيها سيف الدولة " عند نزوله أنطاكية وقتَ منصرَفه من الظَّفْر بحِصنِ بَرْزَوَيْه سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة". {بحر الطويل}:

وَفَاؤُكما كالرَّبْعِ أشْجَاه طاسِمُهْ ** بأنْ تُسْعِدا والدَّمْعُ أَشفاهُ ساجِمُهْ

وقدْ يتَزَيَّا بالهَوى غَيْرُ أهلِهِ ** ويَسْتَصْحِبُ الإنْسانُ مَنْ لا يلائِمُهْ

بَلِيتُ بِلَى الأطْلالِ إنْ لَمْ أقِفْ بها ** وُقُوفَ شَحِيحٍ ضاعَ فِي التُّرْبِ خاتَمُهْ

سَقاكِ وحيَّانا بكِ الله إنّما ** على العِيسِ نَوْرٌ والخدودُ كَمَائمُهْ

تُقَبِّلُ أفواهُ المُلوكِ بِساطَهُ ** ويكْبُرُ عنها كُمُّهُ وبَراجِمهْ

قِيَاما لِمَنْ يشْفِي منَ الدَّاءِ كَيُّهُ ** ومِنْ بَينِ أُذْنَيْ كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهْ

لَهُ عَسْكَرا خَيْلٍ وطَيْرٍ إذا رمى ** بها عسكرا لمْ يبق إلا جَماجِمُهْ

أجِلّتُها منْ كُلِّ طاغٍ ثِيابُهْ ** ومؤطِئها منْ كلِّ باغٍ ملاغِمُهْ

سَلَكْتُ صُروفَ الدَّهرِ حتى لقِيتُهُ ** على ظَهْرِ عزْمٍ مُؤْيِداتٍ قَوَائِمُهْ32

لما كانت هذه القصيدة مناسبة لتوطيد العلاقة بين الأمير والشاعر الذي قطع أشواطا وتجارب كثيرة للقياه؛ فَبَدَهِيٌّ أن تكون الصنعةُ والدربةُ سلاحَ أبي الطيب في إقناع الأمير بشاعريته التي انتشرت في الآفاق، على الرغم من سماع سيف الدولة شعر الرجل من مقربيه قبل التقائهما –كما نجد عند الشراح وهم يرصدون سيرة الشاعر المتنبي – وعلى هذا الأساس سعى الشاعر إلى انتقاء أجود الألفاظ ذات الجَرَس العالي والمعنى الغالي للتأثير فيه واستمالته من خلال وصف شجاعته وبطولاته وصرامته في الحفاظ على مُلكه حينذاك.

إن أول ما يبتدئ به الشارح كلامه هو ذكر مناسبة القصيدة كما أشرنا آنفا، ومن ثم يعلق عليها. قال في البيت الأول منها: "«لفظ المتنبي في تفسيره هذا كنت أبكي الربع وحده فصرت أبكي وفاءكما. قال: خاطب صاحبيه وقد لاماه في ذلك كله على الربع، فقال: وفاؤكما بإسعادي كالربع أشجاه طاسمه: والطاسم والطامس بمعنى واحد. طسم: طمس، أي درسَ وخَفيَ."33 .

يقصد ابن جني ب " لفظ المتنبي "كما هو بيّنٌ معنى البيت كله لا الكلمة الواحدة، ومن ثم ينتقل إلى تجزئته بالنظر إلى الألفاظ المشكلة له يعلل ذلك قوله: "والطاسم والطامس بمعنى واحد. طسم: طمس، أي درسَ وخَفيَ "، وهو معنى مشترك بين الجذر (ط س م) الذي يقبل " الاشتقاق الأكبر"كما سماه في الخصائص، قال ابن جني: " هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا...،

وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا.." 34، إلا أن المتنبي رام استعمال " الطاسم " مؤخِّراً حرف (الميم في الكلمة) نظرا لما يحمله الحرف من خصائص جمالية في القصيدة كلها؛ إذ جعله رويًّا لها، كما أن هذا البيت جاء فيه مكررا (4) مرات (طاسمه، وفاؤكما، الدمع، ساجمه) وهو مطلع يتسم بالحزن والقلق والاشتياق ولذلك وظّفه لأنه يعدُّ من حروف الغنة التي تتميز " بتردد موسيقي محبب "35، وكأنه يريد ترسيخ هذا التردد في سمع متلقيه من خلال البكاء على هذا الربع بمعية صاحبيه.

بيد أن عبارة " لفظ المتنبي ها هنا = المقدمة الطللية " تجرنا لطرح السؤال التالي: لماذا لم يسجل الشارح ابن جني – ومن تبعه – ملاحظة بخصوص معنى هذه المقدمة الطللية التي دأب الشعراء الجاهليون على افتتاح القصيدة بها على سمت امرئ القيس القائل: " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .... ؟؟ وهي عادة الشاعر الجاهلي الذي تربطه علاقة قوية بالمكان والأشياء ورؤيته للعالم من حوله، يقول أدونيس: " الشعر الجاهلي شعر شهادة: لم تكن غاية الشاعر العربي أن يغير العالم أو يتخطاه أو يخلق عالما آخر، كانت غايته أن يتحدث مع الواقع، ويصفه، ويشهد له. يحب الأشياء حوله لذاتها ولما تمثله.. لا يحاول أن يرى في الواقع أكثر مما فيه، وإنما يحاول أن يراه بكل ما فيه. هكذا يكتسب كل شيء في لوحة الصحراء قيمته ومعناه — من الجِرذُون إلى الجبل، ومن الكوكب إلى الطلل .."36، الشاعر الجاهلي إذن يبكي الربع والأطلال لذاتها فهي جزء منه يطوقها ويصفها لتكون شاهدة عليه عبر الشعر وأزمانه، لكن هل استمرت النظرة إلى الأشياء (ومنها الربع) على نهج الجاهليين زمن المتنبي ومعاصريه في المرحلة العباسية ؟؟ هل بمخاطبته صاحبيه هو الآخر بقوله: " وفاؤكما " يعتبر بمثابة وفاء من أبي الطيب لتعابير الجاهلي؟ هل يسعى من خلال البكاء على هذا الربع تغيير شيء ما في عالمه المحيط به؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها والتي تتبادر إلى الذهن تحتاج إلى إيراد مكانة الشاعر العباسي حينذاك الذي يعيش في مجتمع " صار كتلةً كثيفة معتمةً تحول بين الشاعر والضوء، فازداد شعوره بأنه منبوذ، محاصر مخنوقٌ.. وفي هذا كله كان يشعر أنه يعيش في «زمان القرود» كما يعبر أبو نواس، وكان في الوقت نفسه يحسُّ أنه سابق لعصره ولمعاصريه. وقد رافق هذا الإحساس بالاستباق التوكيد على الاندفاع الروحي وعلى الفردية "37.

إن مضامين هذا النص وعبارة أبي نواس " زمان القرود ": تُترجم حال المتنبي، لكونه ممن حاولوا التصرف في أنساق الشعر العربي من منطلقات جمالية جديدة رغبة في تطويره، إلى جانب أبي تمام وغيره ممن وجدوا أنفسهم في عصر بدأ صوت الشاعر فيه يُنبذ، حل محله السيف وقوة الحواضر بسُلَطِها، بخلاف الجاهلي الذي يسيطر على المكان و طبيعته برمتها وهو لسان هذه القبيلة في الحرب والسلم، والمفاخرة، والمذاكرة الفكرية والثقافية، المكان والبكاء عليه ههنا عند المتنبي له دلالة أخرى تجلت في انطلاقاته منه للقاء أمير يعترف به كشاعر يصلح أن يكون (شاعرا = أميرا)38 متواريا يُستشار ويوقظ الهِمَم، ويحافظ على سلم المنطقة ببلاغته وفصاحته وحنكته الفكرية والتعبيرية، ولذلك تجده مضايَقا ومحاصرا في كل بلاد يطؤها، يحاولون39 إبعاده عن كنف السلطة ومراكز القرار، ومن ثمة يلجأ إلى " الاندفاع الفردي " حسب عبارة أدونيس، في " زمان القرود " حسب عبارة أبي نواس، وهذا بادٍ في شعره كله، فهو القائل:

أذُمُّ إلى هذا الزّمان أَهَيْلَهُ ** فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وَأحْزَمُهَمْ وغْدُ

وأكرَمُهُمْ كَلْبٌ وأبصَرُهُمْ عمٍ ** وأسْهَدُهُمْ فَهْدٌ وأشجَعُهُمْ قِردُ40

وفي موضع آخر ينزهُ نفسه ويُعليها على أناس كقُرُودٍ تُحاكي ابن آدم في الأفعال دون المنطق حين قال:

يرُومُون شأوي في الكَلامِ وإنما *** يُحاكِي الفتى فيمَا خلَا المَنْطِقَ القِردُ41

وهو القائل أيضا:

على قلقٍ كأن الريح تحتي ** أوجهها جَنوبا أو شَمالا42

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة في شعره والتي تعبر عن سخطه وعدم رضاه عما آلت إليه حالة الشعراء وحالة الشعر وهي الأهم عنده، والمثقفين في ذلك العصر، ويرى أنه أهل للقيادة وإصدار القرارات عبر خطاباته الشعرية التي تجمع بين ما هو سياسي وثقافي، وتاريخي صرف، بل إنه يبوح بكل ما يهم الانسان العباسي حينذاك.

لنعد إلى تعليق الشارح أبي الفتح على تلاحم أجزاء أبيات القصيدة أعلاه من حيث تآلف حروف ألفاظها تارة، وتآلف عبارة بعينها أو معنى الصدر أو العجز تارة أخرى، سعيا منه إلى الحكم على الخطاب الشعري في شموليته وفي علاقة كل هذه الجوانب بسياقها الذي تجلى في مدح أمير حلب بالوقوف على هذا الربع، على أن أبا الفتح دافع عن صنعة المتنبي من خلال التدليل على صحتها وتماسكها، من ذلك أولا : دفاعه عن اللفظ ومعناه حين أنكر عليه ابن خالويه لفظة " أشجاه " في البيت الأول من نفس القصيدة ظنا أن الكلمة فعل وهي اسم، قال الشارح : " (...)، و«أَشْجَاهُ» أي : أشدُّهُ شَجْواً، كما تقول: أحزَنُه وأَشَقُّهُ، ولما سمع ابن خالويه هذا البيت قال له منكرا عليه : أتقول: «أشجاهُ» ؟ إنما هو «شجاه»، فقال له المتنبي: اسكت، فليس هذا من عملك، يريد صناعة الشعر؟ وهو كذلك لأن ابن خالويه ظنه فعلا وهو اسم. ومعنى البيت: كنت أبكي الربع وحده، فصرت أبكي وفاءكما معه.."43.

وردَّ عليه ابن معقل الآزدي بخصوص معنى البيت بقوله: " قال: معنى البيت: كنت أبكي الربع وحده، فصرت أبكي وفاءكما معه.

وأقول هذا ليس بشيء!

والمعنى: أنه يخاطب صاحبيه؛ يقول: وفاؤكما أن تسعدا بالدمع كالربع...، وكأن في هذا إشارة إلى أن صاحبيه لم يَفِيَا له بالإسعادِ، وأنهما قصرا معه في البكاء.."44.

يتبين إذن أن النظرة إلى المكان عند المتنبي تسبقها نظرة خاصة يحاول من خلال مطلع هذه القصيدة تغيير المكان نفسه، وتغيير أماكن ومواقع الأشخاص المحيطين به والمحيطين بالسلطة العباسية بعامة وسلطة أميره بخاصة في هذا السياق (ابن خالويه وأشباهه)، فقوله له كما جاء في نص ابن جني: " اسكت، فليس هذا من عملك " إثبات لأحقيته في فن الكلمة من خلال الشعر والتي تعتبر إمتاعا وإقناعا، إذ هي إمتاع المتلقين بجماليتها، و ما تحمله من شعور وإحساس عميقين يدل على ذلك معناها، وإقناع السلطة بقوتها في التغيير، وعلى هذا الأساس يرى في ذاك البكاء تحسرا ليس على الربع لذاته، لأنه لا يحمل هم حبيبةٍ كانت تقطنه، وليس بإسعاد رفيقيه بالبكاء معه كما يزعم ابن معقل، وإنما هو بكاء على ما آلت إليه أوضاع البلاد والعباد في تلك الفترة، وجعل من نفسه المنقذ والمخلص لآلام وآمال الخليفة وإمبراطوريته، ولذلك قال في البيت الثاني من نفس القصيدة :

وقدْ يتَزَيَّا بالهَوى غَيْرُ أهلِهِ ** ويَسْتصْحِبُ الإنْسانُ مَنْ لا يلائِمُهْ45

أي: أن فعل المصاحبة (مصاحبة الأمير) تستدعي رجلا يلائم المكان والزمان، قولا وفعلا، على الرغم من أن ابن معقل يذهب إلى أن الكلام موجه لصاحبيه لا للأمير حين قال: " يقول: هذان الصاحبان اللذان سُمْتُهما الإسعادَ بالبكاء، متصنعان بالهوى مُتكلفانِ له، غيرُ موافقيْن لي ولا موافقيْنِ لِطِبَاعي، فهذا المعنى الذي يقتضيه اللفظ، وتدل عليه القرائن ويتبين به الإعراب "46 .

و قال أبو الفتح: " و كلّمته أيضاً في « يَتَزَيَّا »، فقلت له : هل تعرفه في شعرٍ قديمٍ أو كتابٍ / من كتب اللغة؟ فقال: لا، فقلت له: كيف استعملته، وأقدمت عليه؟ قال: لأنه قد جرت به عادة الاستعمال، فقلت له: أَتَرضى بشيءٍ تورده باستعمال العامّة ، ومن لا حجّة في قوله ؟ فقال: فما عندك فيه؟ فقلت: قياسُه « يَتَزَوَّى »، فقال: من أين لك ؟ فقلت: لأنّه من الزيّ والزيّ ينبغي أن تكون عينه واوًا ، وأصله : « زِوْيٌ » ، فانقلبت الواو ياءً ؛ لسكونها وانكسار ما قبلها ؛ ولأنها أيضاً ساكنةٌ قبل الياء ، ويدلّ أيضاً على أنّ عين الزيّ واوٌ أنّه لا يقال : لفلان زيٌّ ، إذا كان له شيءٌ واحدٌ مستحسنٌ ، حتّى تجتمع له أشياء كثيرةٌ حسنةٌ ، فحينئذٍ يقال: « زِيٌّ » ، قال : فكأنك تقول إنّه من قولك: زُوِيَتْ لِي الأرضُ ، ومن قول الأعشى :

يَزِيدُ يَغُضُّ الطّرْفَ دُونِي كَأَنَّمَا ** زَوَى بَينَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ المَحَاجِمُ

أي: جُمِعَتْ، وجُمِعَ، فقلت: إلى هذا ذهبتُ، فأصغى نحوه، ثم قال: لم يرد الاستعمال إلاّ «يَتَزَيَّا»، فقلت له: إنّ العامّة ليست ألفاظها حججاً على أنه قد ذكر هذا الحرف صاحب العين فقال: تَزَيَّا فلانٌ بِزِيٍّ حسَنٍ، وزَيَّيْتُه، تَزِيَّةً، بوزن «تَحِيَّةٍ»، فإن كان هذا ثَبْتاً غيرَ مدفوعٍ، فليس يناقض لما قلت من أنّ قياسه «يَتَزَوَّى»، فيجب أن يحمل «يَتَزَيَّا» على أنه قلبت الواو فيه ياءً؛ طلباً للتخفيف.. كما قال الآخر فيما أنشده أبو زيد:

إنْ دَيَمُّوا جَادَ وَإِنْ جَادُوا وَبَلْ

فقال: دَيَمُّوا من: «دَامَ»، يدُومُ، ولكنّه لـمّا رأى الدِّيمَةَ، والدِّيَمَ بياء، فقال: دَيَمُّوا أَنِسَ بها، وأخلَدَ إليها لخفّتها، والوجه أن يقال: دَوَّمُوا، وقد روى أبو زيد هذا أيضاً: «دَوَّمُوا» بالواو على القياس، وكما قالوا في جمع «عيد»: أَعْيَاد، وفي تحقيره: «عُيَيْدٌ»، وهو من / عَادَ، يَعودُ في كلّ سنةٍ، وكان قياسه: «عُوَيْد»، و«أَعْوَاد»، كما تقول في تحقير «رِيح»: رُوَيْحة، وفي جمعها: أَرْوَاح، وقد حكى اللحياني في نوادره: رِيحٌ وأَرْيَاح. فهذا مما أجري أيضاً مجرى البدل اللازم لخفة الياء، وأشباهه في اللغة كثيرة، منها قوله:

حِمًى لاَ يُحَلُّ الدَّهرَ إلاّ بِإِذْنِنَا ** ولاَ نَسْأَلُ الأَقْوَامَ عَهْدَ الْمَيَاثِقِ

وكان قياسه: «الموَاثِق»؛ لأنّه من: الوثيقة، ولكنّه لـمَّا أبدل الواو في: «مَياثِق» ياءً أجراها مجرى الياء اللازمة؛ طلباً للخفّة.

وكذلك أيضاً قوله: «يَتَزَيَّا» إن كان صحيحاً من قولهم فهو مما ألزم بدل الياء من الواو تخفيفاً؛ ولأنّه قد أبدلها في زِيٍّ ، فهذا من طريق الاشتقاق ، والقياسُ أيضا فيما بعدُ يقضي بأن تكون عين الفعل من « الزيّ » واوًا في الأصل ؛ لأنّ باب «طَوَيت» ، و«شَوَيت»، و«لَوَيت »، و« زَوَيت » مما عينه واوٌ ولامه ياءٌ أكثر من باب « حَيِيت »، و«عَيِيت » مما عينه ولامه ياءان ، فإذا اجتمع الاشتقاق والقياسُ جميعاً على قضيّة لزم قبولها ورفض ما عداها وخالف وصفها "47.

أول ملاحظة تُسجل على هذا الحوار الدائر بين أبي الفتح وأبي الطيب على طوله هي: أن أبا الفتح انتبه إلى القياس في الفعل "يتزيّا" الذي أصله " يتزوّى"، وأعرض عن أخذ أبي الطيب الفعل من جهة العوام دون القاعدة المتعارف عليها، لكون أصل الاسم " الزي " مما عينه واو لا الياء، ولكن لما قُلبت الواو ياء استعمل " يتزيّا " بدل " يتزوّى"، ليكون أبو الطيب على وعي بهذا القلب على سليقته، وانتشار اللفظ عند العامة طلبا للتخفيف.

وعلّل أبو الفتح أن الواو قلبت ياء من " زِيٌّ " نحو " زِويٌ " بكون الواو ساكنةٌ قبل الياء، وما قبلها منكسِرٌ، ثم إن " الزِّيَّ " لا يقال لفلان إلا حينما تجتمع فيه أشياء حسنة لا شيء واحد مستحسنٌ، وهنا يظهر مدى دفاع أبي الفتح على المعنى الذي يريد أبو الطيب ترسيخه بين ثنايا بيته فقوله : " ويدلّ أيضاً على أنّ عين الزيّ واوٌ أنّه لا يقال : لفلان زيٌّ ، إذا كان له

شيءٌ واحدٌ مستحسنٌ ، حتّى تجتمع له أشياء كثيرةٌ حسنةٌ ، فحينئذٍ يقال: « زِيٌّ »"48 يؤكد نقصان الهوى لدى صاحبيْ المتنبي، لذلك استحسن أبو الفتح "يتزوى " بدل "يتزيا" لما زال الموجب لانقلاب الواو ياءً بفضل تحرّكها وانعدام الكسر قبلها، فتقول في وزن (تَفَعَّل ، يَتَفَعَّلُ = تزوّى = يتزوَّى) .

إلاّ أنّه برَّرَ انقلاب الواو ياءً ههنا على أنه من قبيل البدل اللازم؛ نظرًا لانقلابها في أصل المادّة، وهي: (زيّ)، ثم صرّفه على اللفظ تخفيفا، وأتى بالشواهد والنظائر، من ذلك قولهم في (عِيد): (أعياد)، و(عُيَيْد) على سمت (العيد)، والقياس : (أَعْوَاد)، و(عُوَيد) ؛ لأنّه من (عادَ ، يَعُود) ، وكذلك : (دَيَّمُوا) ؛ على سمت (الدِّيمة ، والدِّيَم) في قول الراجز :

إنْ دَيَّمُوا جَادَ وَإِنْ جَادُوا وَبَلْ

فقال: (دَيَّمُوا) من: (دَامَ ، يدُومُ) ، والقياس فيه (دَوَّموا) .

يتبين إذن أن ابن جني على دراية واسعة بالقياس والسماع معا في مسائل توجيه حروف اللفظ المستعمل، لأنه يقلب المسألة الواحدة على أوجه كثيرة حتى يقتنع القارئ أو المحاجَجُ كأبي الطيب، وإنما محاججتُه للمتنبي في هذه المسألة ليُعْلِمَه أن الشاعر الفذ هو الذي يتقصى العلم قياسا بالضرورة، وإن لم يجد فسماعا، ولكنه يحبذ التدليل على صحة القول المزعوم كي لا يُشَكَّ في معارفه اللغوية ليس إلا.

بناء على مثل هذه التعليقات تجد ابن فورجة ينتقد شرح ابن جني ويقسو عليه، من ذلك قوله:" وعند أبي الفتح أنه يقدر على تبديل ألفاظ هذا الشعر بما هو خير منه. وقرأت على أبي العلاء المعري ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب، فقلت له يوما في كلمة: ما ضرَّ أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها. فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها، ثم قال لي : لا تظنن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتابا. وها أنا أجرب ذلك منذ العهد فلم أعثر على كلمة لو أبدلتها بأخرى كان أليق بمكانها، وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول.."49.

ظاهر كلام ابن فورجة صحيح إلى حد بعيد لكون المتنبي امتلك ناصية الشعر واللغة بإجماع كثير من النقاد، لكن من الناحية المنطقية فالشعر والكلام البشري بصفة عامة معرض للضعف أو النقص من جهة الإيحاء الذي تحمله الكلمات، ولذلك قد تُستبدل في الشعر كلمة بكلمة أخرى في إطار النقد الذي هو إبداع ثان للنص الشعري أو الأدبي عموما شريطة أن تصدر عن لغوي كبير كابن جني، وربما على هذا الأساس قال المتنبي قولته المشهورة : " ابن جني أعرف بشعري مني "، وكأنه بهذا القول يعلق " وسام العُروبة " لأبي الفتح غير العربي المحب للعربية والمنَظِّر لها من حيث علومها وآدابها على سمت سيبويه و الفارسي.

وقال أبو العلاء المعري: " (...)، وكان أبو الفتح ابن جني رحمه الله يومئ إلى أن القياس يوجبُ: يتزوى لأنه يأخذ الزي من زويتَ الشيء إذا أَمَلْتَهُ إلى نفسك أو إلى غيرك. وزوى الرجل ما بين عينيه إذا أَمَالَ بعضَه إلى بعضٍ. والعرب إذا أظهرت التاء في كلمة وأصلها من ذوات الواو، فربما جاؤوا بالياء لأنهم يستأنسون باللفظ المسموع كما قالوا: تديَّرت المكان حملوه على لفظ الدار، وأصل الدار الواو لأنهم يقولون في جمع الدار: أَدْوُرٌ. ولما قالوا الزِّيَّ فجاؤوا بياء مشددة- وقالوا: زوى وجهه عني زيّاً إذا قبَّضهُ. آثروا أن يقولوا: تزيَّا بكذا."50 .

نلحظ أيضا من كلام أبي العلاء أنه ممن أجازوا استعمال الياء بدل الواو في " يتزيا" لأن أبا الطيب استأنس بها كما هي الحال عند العرب، وهو ما باح به الشاعر المتنبي وقت القراءة على ابن جني لما قال له سمعتهم يقولونه على الرغم من معرفته بقاعدة الأفعال ذوات العلة في العين، من عدم معرفته إياها.

وفي معنى البيت قال المعري: "يقول: ربما يُظهر الانسان من نفسه أنه عاشق، وليس هو بعاشق حقيقة، كما أن الانسان قد يصحب من لا يوافقه.

يعني: أنا عاشق على الحقيقة ولست في دعواي متكلفا. "51 .

وهو معنى لطيف عند أبي العلاء، ويمكن أن نضيف عليه ونقول: إن المتنبي في مدحه لسيف الدولة وصف نفسه بالعاشق الذي يعشق ويعرف أسس العشق الكامنة في دواخله، وليس كمن يتزوى بالهوى وهو أبعد منه بُعْدَ قِمَّةِ من يروم الناسُ مصاحبتَه، إذ لن يصاحبه إلا من هو في منزلته في الأخلاق والعلم والمحبة مثلا، فإن زالت هذه الشروط زالت المصاحبة كما يزول العشق والهوى فيمن لا يعرفه في حقيقته.

خلاصة:

نخلص مما سبق أن ابن جني كان واضحا في منهجه الذي ارتضاه لكتابه الفسر وهو تلقي شعر المتنبي بالشرح والتفسير، وهو شرح موجه بالأساس إلى النقاد والشراح بعده الذين يقبلون على شعر المتنبي، كما أنه وجه لكل محب للأدب ومتذوق له وخاصة الخطاب الشعري الحمال لرؤى فلسفية ونفسية واجتماعية وثقافية، موظفا في هذا الشرح طاقته اللغوية ونظرياته في الحكم على الخطاب الشعري بعامة وشعر رفيقه خاصة، مدعما ذاك الشرح بالتأويل السمة الأساسية التي يتميز بها ناقد عن آخر سواء كان لغويا أو فنيا أو بلاغيا أو غير ذلك.

الهوامش:

1 – الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، 1371هـ 1952م،: 1/ 21).

2– الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. محسن غياض، مطبعة الجمهورية– بغداد 1993، دار الحرية للطباعة ص 182.

3 – مقدمة الفسر، ص 3 .

4 – مقدمة كتاب الفسر، ص 10.

5 – لم يكن هذا الديوان وحده الذي تفضل أبو الفتح بشرحه، بل له مؤلفات أخرى في هذه التجربة نذكر منها : – التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة، تحقيق سيدة حامد عبد العال، وتغريد حسن أحمد عبد العاطي، إشراف ومراجعة حسين نصار، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، دط، 2010م. –" المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، طبع ثلاث طبعات كلها في دمشق، الأولى : تحقيق حسام الدين القدسي، 1348هـ، والثانية : تحقيق حسن هنداوي، 1987م، والثالثة، تحقيق مروان العطية وشيخ الزايد، دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1408هـ، 1988م. – " تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع" ، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة 1966، وطبع أيضا سنة 1980،– " شرح ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، طبع بنجف العراق، سنة 1937م – " التمام في تفسير أشعار هذيل، مما أغفله أبو سعيد السكري" ، حققه وقدم له: أحمد ناجي القيسي، وخديجة عبد الرزاق الحديثي وأحمد مطلوب، وراجعه مصطفى جواد، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1962م.

6 – مقدمة الفسر، ص، 3.

7 – نفسه، ص3.

8 – معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 12 /110.

9 – مقدمة الفسر، ص 9–10.

10– الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، (ت 392 هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1410هـ / 1990م.ص 234، وما بعدها.

11 – انظر دراسة وتحقيق الفسر، رضا رجب، باب: "منهجه في شرح الديوان" ص 365.

12 – أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي، ريجيس بلاشير ، ، ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1045هـ 1985م ،، ص 387.

13– لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين بن منظور الأنصاري (711 هـ) ، دار صادر، بيروت، ط1، 1990م. 15/1، (فسر).

14 – معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، (ت 395 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ (1979م. 4/ 192 .

15 – انظر: مقالة فيصل أبو الطفيل عنونها ب: " منهج ابن جني في شرح ديوان المتنبي: قراءة في مقدمة الكتاب "، مجلة لغة–كلام، مجلد 3، عدد2/ 2017، ص166، وهي مقالة جاءت كرد على فهم د. عدنان عبيدات في كتابه " الاتجاهات النقدية لشراح ديوان المتنبي القدامى " لمنهج ابن جني في الفسر.

16- الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. محسن غياض، مطبعة الجمهورية- بغداد 1993، دار الحرية للطباعة ص 182.

17 - مقدمة الفسر، ص 17، 18.

18 - نفسها، ص 4.

19 - الفسر، 4/ 652.

20 - مقدمة الفسر، ص 17.

21 - نفسها، ص 17.

22 - مقدمة الفسر، ص 18.

23 - نفسها، ص18.

24 - سورة الشعراء، الآية 225.

25 - مقدمة الفسر، ص 5.

26 - الفسر، 4/ 244.

27 - الفسر، 1/ 19.

28 - نفسه، 1 / 71.

29 - ينظر: باب: منهج ابن جني في شرح ديوان المتنبي، من قسم الدراسة في تحقيقه لكتاب الفسر، ص 363. ملاحظة : بعض الباحثين الذين تحدثوا عن الشروح التي تلت شرح ابن جني وأدلوا بآرائهم فيها بإيراد نصوص إما للواحدي أو للشاعر المعري في اللامع العزيزي ومعجز أحمد، والخطيب التبريزي، وغيرها من الشروح الكثيرة وهي في الحقيقة آراء للشيخ رضا رجب الذي رصد جميع الشروح ومنهجهم في تأليفها ليكون ذلك معينا له في فهم تعامل الشارح الأول مع الديوان، ولم يشر أيٌّ من هؤلاء الباحثين لما قام به محقق الفسر ونسبوا فهمهم للشروح لأنفسهم، وهذا ما لم يفعله رضا رجب على غزارة علمه وحصافة نقده مع سابقيه من النقاد مثل محمد مندور في " النقد المنهجي عند العرب"، ولا إحسان عباس في كتابه " تاريخ النقد الأدبي عند العرب" ولا غيرهما.

30 - الخصائص، 1/ 27.

31 - نفسه، 2/ 331.

32 - الأبيات في ديوانه: " ديوان شيخ شعراء العربية أبي الطيب المتنبي "، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، سعيد جودة السحار، وعبد العزيز شرف ص 317، و" الفسر"، 319/3، و" معجز أحمد "،3/ 13، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي، 4/ 33، وهذه القصيدة هي أول ما أنشده أبو الطيب في سيف الدولة حسْب ابن جني: يُنظر هامش ص 319 من كتاب الفسر، ج3.

33 - الفسر: 3/ 319 .

34 - الخصائص: 2/ 144.

35 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 69.

36 - مقدمة للشعر العربي، أدونيس، ط3، 1979، دار العودة بيروت ص 22.

37 - مقدمة للشعر العربي، ص 36، وفي السياق نفسه أورد أدونيس عبارة لأبي تمام «صدأ العيش» التي تصف حال الشاعر العباسي الذي يشعر بالغربة والانفصال وذكر المعنيين بهذه الغربة والانفصال وهم: أبو نواس وابن الرومي، والمتنبي، وأبو العلاء المعري..، ينظر الصفحة نفسها 36 وما بعدها في " مقدمة للشعر العربي ".

38 - وهو القائل: وإن كان لساني يُرى من الشعراء فإن قلبي من الملوك

39 - الحساد " أهل زمن القردة " وهم متعددون حسب سيرة المتنبي في الشروح، من مثل: ابن خالويه، أبو فراس الحمداني، كثرة الشعراء، والوزراء الذين أخفاهم وصرفهم عن هدايا الأمراء.

40 - البيتان في: ديوانه، ص 119، والفسر، 1/ 987- 988، و " المآخذ على شرح ابن جني " لابن معقل الأزدي، 1/ 73، و" شرح ديوان المتنبي " للبرقوقي، 65/2.

41 - البيت في: ديوانه، ص 123، و " الفسر، 1/ 1030.

42 - البيت في ديوانه، ص 291، و الفسر، 3/ 158، وقد قال محمود درويش في حق المتنبي من خلال هذا البيت: "كتبت حوالي المئة قصيدة، ثم انتبهت إلى أن المتنبي قال: (على قلقٍ كأن الريح تحتي)، أنا كل ما أردت أن أقوله، قاله هو في نصف بيت، المتنبي ليس فقط مخلصا لكل ما سبقه في الشعر العربي، وإنما هو مؤسس لكل الحداثة الشعرية التي تلت، ونحن نسبح في فضاء المتنبي " . من كتاب " ابو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر"، زين الدين ثائر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص 8.

43- الفسر، 3/ 322 .

44 - المآخذ على شرح ابن جني، ابن معقل أحمد بن علي الأزدي المهلبي، تحقيق عب العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، ط، 2 الرياض. ص 252.

45 - البيت في ديوانه، ص 318.

46 - المآخذ على شرح ابن جني، ص 252.

47 - الفسر، 3/ 324- 325- 326 .

48 - الفسر، 3/ 324.

49 - التجني على ابن جني، لابن فورجة، (96) نصا مفقودا، تحقيق الدكتور محسن غياض.، مجلة المورد، المجلد السادس، العدد الثالث، 1977، (عدد خاص بأبي الطيب المتنبي)، النص 91 ، ص 234.

50 - اللامع العزيزي، (شرح ديوان المتنبي)، أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي (ت 449 هـ) تحقيق محمد سعيد المولوي. 3/ 1121.

51 - معجز أحمد، (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي)، أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، 3/ 16.